ـ 3 ـ

الرابح يأخذ الكثير

قبل وقت طويل من قدومي إلى أمريكا، أتت أمريكا إلي. كنت في الخامسة حين رأيت أول الأمريكيين. كانوا من الجنود الذين اندفعوا بسيارتهم إلى مزرعة والدي في ربيع عام 1945. لم يبقوا فيها مدة طويلة. ولم أعرف ما الذي كانوا يبحثون عنه. وقفنا أنا وأخي الأصغر هناك نحدق إليهم وهم يرتدون لباسهم الميداني المؤثر. لقد جاء الأمريكيون إلينا كمحررين، كانوا منتصرين بامتياز. بعض الناس من جيل والدي نظروا إليهم بامتعاض واستياء. لكن الكثيرين رحبوا بهم أجمل ترحيب وشعروا تجاههم بارتياح كبير. فضلا على ذلك، بدأت طرود ورزم منظمة «كير»* تصل إلى بلدنا الجائع في شباط/ فبراير 1946، وحافظت على بقاء الملايين من الناس اليائسين. أوجدت هذه المعونة الحيوية شعورا عميقا بالشكر والعرفان تجاه الولايات المتحدة، التي لم ينس الألمان فضلها قط. أما أهمية الدور

* (CARE) منظمة أمريكية خاصة توزع الأموال والسلع والمعونات على المحتاجين في البلدان الأجنبية. (م).

obeikandi.com

الذي لعبته رزم «كير» في إنقاذ حياة الألمان فيوضحها المثال التالي: نشرت امرأة شابة عرضا للزواج في إحدى الصحف دعمته بـ«شقة من غرفتين ورزمتين من «كير» في الشهر». فتلقت طلبات من 2437 رجلا أضناهم البرد وأعياهم الجوع![1]

فيما يتعلق بنا، أطفال وشباب حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان كل ما هو أمريكي أفضل وأكثر جاذبية مما لدينا في الماضي. «أسلوب الحياة الأمريكي» جسد نموذجا لحياة مشرقة يمكن أن نعيشها. كنا الخاسرين، والمانيا أطلال وخرائب مدمرة. لذلك تركزت جميع خيالاتنا عن الحياة اللائقة على قصص الأمريكي العصامي الذي أصبح مضرب المثل: كيف بدأ حياته في غسل الأطباق، وأصبح مالكا ثريا لمصانع ومصارف وسفن.

في المدرسة الثانوية تعرفنا الكتابَ الأمريكيين، قصص هيمنغواي القصيرة، و«انظر إلى الوطن يا ملاك» لتوماس وولف، ومسرحيات يوجين اونيل وتينيسي وليامز. تلذذ مدرسونا، والعديد منهم خبروا أيديولوجية التحصين الذاتي من أيام هتلر، في اكتشاف أدب وعمارة وفنون محررينا (أما موسيقاهم فاكتشفناها بأنفسنا!). أثر هذا الافتتان دون شك في قراري بالسفر إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستي. في السنوات المبكرة من الستينيات، بدا من الواضح أن عليك الذهاب إلى هناك إن أردت النجاح في الحياة.

أقول ذلك دون سخرية: أسلوب الحياة الأمريكي كان النموذج الوحيد الذي اجتذب الألمان من أبناء جيلي. كان أسطورتنا الهادية إذا جاز التعبير، لأنه والف بين العظمة والسخاء، والقوة والكفاءة ـ مع الكثير من المرح والمتعة والبهجة. أما تقاليده الديمقراطية ودفاعه عن السلام

والحرية فتفوق في جاذبيته تفوقا ساحقا في نظرنا على الواقع الكئيب للبلدان الاشتراكية المجاورة التي هيمن عليها الاتحاد السوفييتي. وحين جاء الرئيس كنيدي إلى برلين عام 1962، استقبلته حشود جماهيرية ضخمة استقبالا حماسيا. قال الرئيس بالألمانية «أنا برليني» ورد الجمهور مرحبا «نحن جميعا أمريكيون!».

من المؤكد أن هناك الكثير من السذاجة والسطحية في هذه الصورة المتخيلة عن أمريكا. فجاذبيتها تكونت غالبا وتعززت عموما بأفلام هوليود السينمائية، التي جلبت إلينا قصص البطل الأمريكي النمطي، الذي ينتصر دوما على أي عدو يقف في طريقه ـ والعديد من الأعداء كانوا بالطبع من النازيين الأشرار. كان المنتصر المثالي، الذي لا يكترث لإعجاب الذين أنقذهم، في حين تلفت وسامته الساحرة التي لا تقاوم انتباه أجمل النساء.

قيل في بعض الأحيان إن المانيا أكثر بلد متأمرك في أوروبا. أما تفسيري فهو أن المانيا خرجت من الحرب العالمية الثانية أمة مهزومة كليا، لا ماديا فقط بل روحيا وأخلاقيا ومعنويا أيضا. ونظرا لأنه لم يتبق شيء في تاريخنا يستحق أن نعتمد عليه لإعادة بناء هويتنا، تطلعنا إلى المنتصرين علينا بحثا عن بديل له معنى هادف. تطلب الأمر منا بضعة عقود من السنين لاسترجاع المنجزات العظيمة في تاريخ المانيا، كميراث الشعراء والمؤلفين الموسيقيين واللاهوتيين والفلاسفة والفنانين والعلماء الألمان البارزين ـ وفي الوقت ذاته تذكر فظائع الرايخ الثالث. كان وما يزال من الصعب علينا أن نحب وطننا بعمق كاف لنتذكر أنه أنتج غوته وغوبلز*،

* جوزيف بول غوبلز (1897 - 1945): مدير الدعاية الألمانية في الحقبة النازية. (م)

** معسكر اعتقال نازي شهير في وسط المانيا. (م)

وفايمار وبوكينوالد**. وفي الحقيقة، فإن هذا الكفاح للاحتفاظ في أذهاننا بالجوانب الشريرة والملامح المشرقة من تاريخنا بصورة متزامنة سوف يستمر ـ ويجب أن يستمر. إن الوعي الهادئ بالهوية يمكن أن يؤدي إلى الاعتراف بأن جميع البشر والأمم بحاجة إلى العمل في سبيل إنتاج وعي متكامل بالسمات الإيجابية والصفات السلبية: الهوية الوطنية الناضجة هي التي تضع الجوانب «الرابحة» و«الخاسرة» في مقدم الصورة.

متلازمة الرابح ـ الخاسر

حدث وعشت خارج المانيا سنوات عديدة. وربما أكثر من الآخرين الذين بقوا أقرب إلى وطنهم، أجبرت على الإجابة عن أسئلة مقلقة فيما يتعلق بمعنى أن أكون المانيا. وهذا ساعدني على التوصل إلى شعور بالهوية كمواطن ألماني، هوية شملت الميراث المعقد الذي يجمع الذنب والمجد، والعار والفخر. كانت هذه العملية مؤلمة، لكنها قادتني إلى العمل على إجراء تقويم نقدي لظاهرة ثقافية اتصلت بطرق عديدة مع ما سمي بأسلوب الحياة الأمريكي أدعوها «متلازمة الرابح ـ الخاسر». و«الرابح يأخذ كل شيء» أكثر من مجرد عنوان لأغنية أو قاعدة لإجراءات انتخابية[2]. في أسلوب الحياة الأمريكي طريقة غامضة ومراوغة لتصنيف البشر وتقسيم المجتمع.

ما أفكر فيه يمكن أن توضحه قصة رواها لي صديق قبل مدة. فقد كان أحد أبنائه عضوا في فريق المدرسة الثانوية لكرة القدم في البلدة التي يعيش فيها مع أسرته، ومع أن الفريق مثل مدرسة صغيرة، إلا أنه وصل إلى بطولة مدارس الولاية. لكنه خسر مباراة البطولة؛ أما الفريق الآخر فقد أصبح

الرقم واحد. وحتى في هذه الحالة، مثلما يعرف أي شخص بالغ راشد، استطاع الفريق رغم جميع الصعوبات أن يحتل مرتبة ثاني أفضل فريق في الولاية. لكن الأمر على ما يبدو لم يعجب المدرب. وحين عاد اللاعبون إلى غرفة تبديل الثياب، صاح غاضبا: «أيها الخاسرون! أيها الفاشلون الملاعين!». وكرر على مسامعهم مرارا الحكم القاسي الفظ.

قضيتي هنا ليست تحليل السلوك الفظ وغير الناضج لمدرب يحط من شأن الإنجاز الذي حققه فريقه. بل إن اهتمامي ينصب على نوع الحكم الأنطولوجي المطلق الذي يمثله هذا السلوك. أرجو ألا يسيء أحد فهمي. أنا معجب بالامتياز. وبرأيي، لا عيب فيمن يحاول بذل قصارى جهده، ويجب على المدارس الثانوية والجامعات تشجيع طلابها على العمل من أجل تحقيق أفضل النتائج الممكنة، في مساعيهم المعرفية/ الأكاديمية أو الرياضية. فتحقيق إنجاز ذي معنى هادف أمر جوهري للوجود الإنساني على هذه الأرض. ويجب ألا يحرم أي طفل من تجربة اكتشاف مواهبه واستخدامها على أفضل وجه. لكن لأنني أرغب بالضبط في رؤية أكبر عدد ممكن من الناس يستخدمون كامل ما لديهم من طاقات أنتقد متلازمة الرابح ـ الخاسر. فهي تحوي في الجوهر خطأ فلسفيا يتمثل في تحويل حدث عارض (خسارة مباراة، الفوز بصفقة..الخ) إلى حالة أنثروبولوجية دائمة. الخطأ هو اعتبار الأشياء التي تحدث عرضا للبشر جزءا من كينونتهم ـ بل مشكّلة لكينونتهم.

لكن الأمر لا يقتصر على مجرد خطأ فلسفي. إن تصنيف الناس إلى رابح أو خاسر يتضمن حكما له تبعات اجتماعية وسياسية بعيدة المدى. وحين نتذكر ذلك، دعونا نلقي نظرة على ما تفعله متلازمة الرابح ـ الخاسر

بـ«الخاسرين». من المعروف أن عدم تقدير ما ينجزه الأطفال يحرمهم من إمكاناتهم. لكن التجربة المألوفة أيضا تشير إلى أن الآباء والمدرسين والأتراب كثيرا ما يصنفون الأطفال في فئة الخاسرين إذا لم يرتقوا إلى مستوى توقعاتهم. هذا الحكم يترافق مع فقدان الحب، والإعجاب، والمتعة. وينتشر في البيوت والمدارس في شتى أنحاء العالم: نحن نرى أطفالا يبذلون قصارى جهدهم، لكن دون تحقيق أي نجاح يذكر، في حين يكون غيرهم أكثر ذكاء أو سرعة أو جمالا. وعندما يلازم الطفل شعور دائم بأن غيره ينال درجات أعلى، وينتمي إلى أسرة أغنى، ويلبس ثيابا أغلى، ويعيش حياة أكثر سعادة، يهيمن عليه إحساس بعدم الأمان. والحكم عليه بأنه «خاسر» يصيبه بالعجز.

يأتي إلى جانب ذلك الشعور بالخزي والعار، وهو واقع مروع في حياة الخاسرين. الشعور بالعار يدمر الشخصية من الداخل: ويجبرها على العيش تحت وطأة تحقير الذات. وهذا لا ينطبق على الأطفال والشباب فقط؛ بل على البالغين في حياتهم الزوجية أو المهنية أيضا. من السذاجة القول إن على الخاسرين «التجرد من خرافات» الطبيعة الخاطئة لمتلازمة الرابح ـ الخاسر وتحرير أنفسهم منها. بل على العكس تماما. فما إن يحكم على أحدهم بأنه «خاسر»، حتى يصبح من الصعب جدا مغالبته بطرق بناءة. لأن ذلك يتطلب نوعا من السيادة على الذات لا يستطيع معظم «الخاسرين» اكتسابها. وفي الحقيقة، تتجسد المأساة في أن النماذج التي يقيمون أنفسهم وفقا لها وضعها من يتمتعون بالقوة والثراء والجمال والنجاح ـ الذين يقررون الصور الذهنية التي يجب أن يكون عليها الإنسان «الحقيقي».

كيف يفترض أن يمضي المرء في مسيرة حياته حين تواجهه باستمرار إشارات تقول له «أنت فاشل!» و«نكرة!» و«خاسر لعين!»؟ إن العيش مع ازدراء النفس وتحقير الذات والإحساس الغامر بالمرارة والحسد ليس هو الأسلوب الصحيح والصحي. وقلة قليلة من هؤلاء سيجدون ما يكفي من القدرة على مواجهة شعورهم بالهزيمة الساحقة الماحقة. ولحسن الحظ هنالك علاج جماعي لمثل هذه الحالات، يمكن هؤلاء من تقاسم تجاربهم المدمرة مع آخرين يجابهون محنا وبلايا مماثلة. وهو يوفر مساحة مشتركة حيث يمكن للطاقات الإيجابية أن تتولد من المشاعر السلبية. لكن قلة قليلة من الناس يستطيعون العثور على هذا المخرج. فمن المرجح أن يعتقدوا أن العلاج الجماعي مخصص للمدمنين فقط، ولذلك يسعى معظم «الخاسرين» إلى العثور على حالات يدون فيها من «الرابحين». ومن طرق إشباع هذه الحاجة الملحة اللجوء إلى العنف: حيث يتسلط «الخاسرون» على الأشخاص القريبين منهم، لأن من الممكن دوما العثور على الضعفاء ـ مثل النساء والأطفال. ويمكن مشاهدة ما يسمى بالعنف الأفقي الناتج في حالات التعدي بالضرب على الزوجات والأطفال(3).

ثمة طريقة شائعة للخروج من المأزق تتمثل في التعويض عن تحقير الذات عبر الانضمام إلى جمعية سرية أو عصابة إجرامية، ومن ثم المشاركة في الذات المتضخمة للجماعة، حيث توفر الصحبة والرفاقية وهم الانتماء إلى ذات «رابحة» أكبر حجما. أما الهجمات العنيفة التي تشنها مثل هذه الجماعات فتوفر إشباعا فوريا، اعتمادا على وهمها البطولي الخداع. يحتاج هذا الانطباع الموهم بالنجاح والربح إلى إعادة بناء، ومن ثم يفسر الباعث الملح الذي يدفع مثل هذه الجماعات إلى تكرار سلوكها

العنيف. العواقب واضحة والتبعات جلية لكل من يريد أن يرى: شعور الأنا في العصابة يؤكد ذاته بواسطة العنف الذي يستخدم لسحق الجماعات الضعيفة. النمط يتطلب أن يقوم من يضعون أنفسهم في موضع الرابحين بإيجاد خاسرين. وم ن المحتم أن تخلق هذه الآلية دورة من العنف تتجه من الأعلى إلى الأسفل وتبقيها في حالة حركة.

يجب علينا أيضا أن نلقي نظرة سريعة على سؤال وثيق الصلة: ما الذي تفعله متلازمة الرابح ـ الخاسر للرابحين؟ الأطفال الذين ترعرعوا وهم في القمة سوف يتعلمون الافتراض أن هذه هي الحالة الطبيعية للأشياء. فما إن يواجهوا منافسة حادة، في الجامعة أو مكان العمل مثلا، حتى يقاتلوا بضراوة للبقاء في القمة. فالبقاء ضمن الصفوة الرابحة يعني الاستعداد للتضحية بالنفس وبالآخرين. والتشبث بالقمة يعني ضمنا الوقوف فوق هرم من المنافسين الذين لم يبلغوها. لذلك يشمل توكيد موقف الرابح والتعلق به قدرا كبيرا من العنف الرمزي. وبالمناسبة، حين ندرس قصص «من ولدوا رابحين»، نفاجئ بعدد الحالات التي تقرر فيها الزوجة أو أحد الأبناء إظهار الجانب المظلم من حياة الأبطال. وهذا هو العار أو الإحراج الذي يسببه الخارجون على الأعراف السائدة في عائلات الرابحين والأغنياء والمشهورين.

ضرورة إنكار المسؤولية عن التكاليف والتضحيات جزء من العنف المتضمن في وضعية الرابحين. إذ لا يمكن التفكير بالأسئلة المتعلقة بالظلم أو اللامساواة أو إساءة استعمال السلطة. فالرابحون يأخذون كل شيء، وهم يستحقون ما يأخذونه ـ وتلك عاقبة أخلاقية مهلكة. الوهم يتمثل فـي الاعتقاد بأن النجاح من صنعهم وحدهم، كأنهم خلقوا أنفسهم

من العدم. ولذلك لا يتحملون مسؤولية أولئك الذين دفعوهم جانبا، أو الأسلوب الذي توسلوا به، إلا إذا خالف القانون بصورة صارخة. أما أولئك الذين «لم ينجحوا» فليس لديهم من يلومون سوى أنفسهم؛ فالذنب ذنبهم والفشل بسببهم. وجزء من وضعية الرابح يتمثل أيضا في ضمان أن يكون هذا النوع من التفكير مقبولا اجتماعيا. وهذا أمر سهل نسبيا لأن جزءا من قوة الرابحين يكمن في سلطة إيجاد النماذج والصور الذهنية التي ينظر عبرها المجتمع إلى نفسه. ومن هنا، تبدو متلازمة الرابح ـ الخاسر وكأنها الحالة «الطبيعية» للأشياء.

تفضي هذه التأملات النفسية ـ الاجتماعية الوجيزة إلى سؤال آخر: ما الذي تفعله متلازمة الرابح ـ الخاسر بالمجتمع؟ من الواضح أن لها تأثيرا في فهم وإقامة وممارسة العلاقات بين الفرد والخصوم السياسيين أو الجيران أو الجماعات الاثنية. وعلى الرغم من زعم أسها المنطقي بالسعي إلى الامتياز وحسب، ومع أن من المحتم أن يكون بعض الناس أكثر نجاحا من غيرهم، إلا أن متلازمة الرابح ـ لخاسر تدخل عاملا تقسيميا يفكك عرى الروابط الجوهرية والمتبادلة بين الأفراد التي يعتمد عليها كل مجتمع. فإذا سمحنا للتمايزات بين «الرابحين» و«الخاسرين» باكتساب مكانة شبه أنطولوجية، فإننا نحدث صدعا تقسيميا يمكن أن يدمر الإنسانية التي تربط جميع البشر بغض النظر عن أدائهم ونجاحهم وإخفاقهم.

حين ضرب إعصار كاترينا نيواورليانز، أظهرت التقارير على شاشة التلفزيون بكل وضوح أن فقراءها هم الذين عانوا أكثر من غيرهم. وأفزعت العديد من المشاهدين في الولايات المتحدة وخارجها حقيقة

أن كثيرا من هؤلاء السكان قد تركوا على أسطح المباني أو في ملاجئ مهملة. من بين مجموعة من المعلقين الغاضبين، سوف أستشهد باثنين فقط: بوب هيربرت من نيويورك تايمز، الذي تحدث عن «العجز الخطر واللامبالاة المذهلة تجاه المعاناة الإنسانية من جانب الرئيس وإدارته»[4]. أما زميله، الكاتب الصحفي توماس فريدمان، النصير المتحمس لردة فعل الرئيس بوش على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، فقد كتب يقول:

> فضح إعصار كاترينا العديد من الأشياء التي تجاهلها فريق بوش أو شوهها بذريعة محاربة بن لادن: رفضه فرض ضريبة البنزين بعد الحادي عشر من سبتمبر، التي كانت ستنقل اقتصادنا بوقت أسرع إلى إنتاج مزيد من السيارات التي تقتصد في استهلاك الوقود، وتساعد على ادخار المال لأوقات الشدة، ورفضه تطوير شكل من أشكال الرعاية الصحية الوطنية لتشمل أربعين مليون أمريكي محرومين من الضمان[5].

هل تعد ردات الفعل هذه مؤشرا على أن الولايات المتحدة ستمضي في اتجاه ترسيخ ما يعده الأوروبيون جوانب حيوية من دولة الرعاية الاجتماعية؟ هنالك بعض الشكوك حول ذلك. يؤكد جيديديا بيردي، أستاذ القانون في جامعة يورك، أن معظم الأمريكيين ـ 90% تقريبا، ومنهم الأمريكيون الأفارقة ـ يعدون الولايات المتحدة مجتمعا عادلا[6]. وقالوا في استطلاعات الرأي إن قواعد وأنظمة الحياة الاجتماعية والاقتصادية عادلة ونزيهة. فالجهد يلقى التكريم، والناس كلهم يحظون

بفرصهم. من اللافت أن زهاء 20% يظنون أنهم ينتمون إلى نسبة 1% من أغنى الأغنياء في المجتمع الأمريكي، إضافة إلى 20% يظنون أنهم سيرتقون قريبا إلى مصاف تلك الشريحة المنعمة والراتعة في الامتيازات. يتابع بيردي قائلا:

> الجانب الخلفي من هذه النزعة التفاؤلية يمثله الظن بأنك إذا أصبحت فقيرا أو مريضا أو وحيدا فلا تلومن إلا نفسك. من عادة الأمريكيين أن يبدوا إعجابهم بالأغنياء والأقوياء، ويشمئزوا من الضعفاء والفقراء - حتى إن كانوا ضمنهم. أما النتيجة فثقافة سياسية تعد فيها السياسات الهادفة لمساعدة المحرومين - مثل الرعاية الاجتماعية والصحية والمساواة العرقية في الاستخدام - تدخلات اقتحامية في النظام الطبيعي.

إذا كان تحليل بيردي لأسلوب الأمريكيين في التفكير صائبا، فهو تعبير واضح عن متلازمة الرابح - الخاسر. وإذا كان هذا هو شعور غالبية المواطنين الأمريكيين إزاء كيفية تنظيم المجتمع الناجح، فلا يمكن توقع إبداء إعجاب كبير بأنظمة دولة الرعاية الاجتماعية الأوروبية. ومن الواضح أن ذلك لا يعني غياب التضامن مع الضعفاء والفقراء كلية. فهذا يصبح مسألة تتعلق بالكرم والسخاء والإحسان، ويستدعي المؤسسات الدينية أو الإنسانية للعمل (وقد فعلت ذلك في الولايات المتحدة بدرجة كبيرة) - لكن ليس الدولة. وبالمقابل، يعد معظم الأوروبيين أن من واجب الدولة الأساسي العمل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، مع التوكيد في الوقت ذاته على أن الأشكال الإضافية من التضامن لا غنى عنها.

للثقافة السياسية التي تبنى على خط التقسيم الفاصل بين الرابحين والخاسرين مقتضيات ومضامين بعيدة المدى للعلاقات الدولية. فالصراعات والنزاعات الدولية لن تترك مساحة كبيرة للمفاوضات: وأي تسوية تجعل الرابح يبدو جبانا. ولذلك لا بد من هيمنة معضلة «إما/ أو» المأزقية على العلاقات. ومن نافل القول إن تعبير «الدول الفاشلة»، حين توضع الدول والأمم كلها في فئة «الخاسرين»، يصبح كاشفا ومفيدا تماما. إذ تحاصر الدول «الفاشلة» في حالات من الخزي الجماعي. وطريقة التعامل معها، من صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي مثلا، كثيرا ما تفاقم وتكثف الشعور بأنها مسلوبة الكرامة. لكن من الواضح أن احترام الذات هو الشرط المسبق النهائي لكي تستعيد الأمة عافيتها وحيويتها وتدخل في علاقة تعاونية هادفة مع الأمم الأخرى. من المستحيل عمليا بناء أي نوع من الثقة المتبادلة من منظور التقسيم إلى رابحين وخاسرين؛ بل على العكس، فذلك يزيد حدة الاستقطاب وحالة الحرب. المثال المعبر في هذا السياق تجسده «الحرب على الإرهاب». فقد استخدمتها إدارة بوش سبيلا وحيدا للتعامل مع الإرهاب الدولي؛ ومن ثم وسمت الجهود التي تبذلها البلدان الأخرى للتوصل إلى استجابات أكثر دقة وشمولا لمواجهة الهجمات الإرهابية بأنها سياسات «الاسترضاء» والتهدئة الجبانة(7).

أسطورة البطل الأمريكي الخارق

تعد متلازمة الرابح ـ الخاسر طريقة نفسية ـ اجتماعية لفهم مكون مهم من مكونات أسلوب الحياة الأمريكي ـ الذي انتشر طبعا في معظم أصقاع العالم. ترتبط هذه المقاربة ارتباطا وثيقا بتحليل الثقافة الشعبية الأمريكية التي قدمها روبرت جيويت وجون لورنس في كتابيهما «أسطورة

البطل الأمريكي الخارق» و«كابتن أمريكا والحملة على الشر: معضلة الوطنية المتحمسة»[8]. وأظهرا، بأسلوب مقنع برأيي، أن الثقافة الشعبية الأمريكية خلال القرن العشرين ظلت في إسار الشخصية الأسطورية للبطل الذي ينقذ المجتمع المحلي المكروب دون معونة من أحد. ووفقا للكاتبين، فإن «صيغة العقدة النمطية» التي «تظهر في آلاف المنتجات الفنية الشعبية ـ الثقافية» هي كاالآتي:

> مجتمع محلي يعيش في فردوس متناغم يهدده الشر، المؤسسات الطبيعية تفشل في التعامل مع التهديد؛ فيبرز بطل خارق غيري يرفض الإغراءات وينفذ المهمة الإنقاذية؛ وبمساعدة القدر، يعيد نصره المؤزر المجتمع المحلي إلى وضعه الفردوسي السابق؛ ومن ثم يتراجع البطل الخارق ويغيب في المجهول[9].

يصر الكاتبان على أن هذه الأسطورة الأمريكية الأحادية مختلفة عن الأسطورة التقليدية الأحادية التي وصفها جوزيف كامبل ببراعة في كتابه «البطل ذو الألف وجه»[10]. ففي حين يغامر البطل التقليدي الغرير في عالم متخم بالعجائب والأخطار ويتعلم مغالبة الأعداء المهددين لكي يعود إلى الوطن إنسانا أكثر نضجا وحكمة، فإن البطل الخارق الأمريكي خادم لا يعرف الأنانية يخاطر بحياته في سبيل الآخرين، و«محارب متحمس يدمر الشر»[11]. وفي حين يبدو البطل التقليدي مستمدا من طقوس تعميد المبتدئين والأغرار تمهيدا لدخول الفرد العادي مرحلة النضج، فإن البطل الخارق الأمريكي يعبر عن الصورة التخييلية للخلاص. ووفقا لجيويت ولورنس:

المنقذون الخارقون في الثقافة الشعبية يحلون محل شخصية المسيح المخلص، الذي أضعفت العقلانية العلمية مصداقيته. لكن قدراتهم الخارقة تعبر عن أمل بالمقدس، بالقوى الإنقاذية المخلصة التي لم يتمكن العلم من محوها من الذاكرة الشعبية. فشخصيات مثل نيو في فيلم «المصفوفة» (Matrix) تبدو مصممة بوضوح لتتقدم إلى رواد السينما المعاصرة هذا المسيح الجديد ـ الذي تخلى عن عجز العظة على الجبل (التي ألقاها يسوع). ليحمل هو ورفيقه ترينيتي حقيبة البحارة الملآنة بالبنادق والمسدسات والمتفجرات المطلوبة لتدمير مركز القيادة للشر السياسي[12].

لسنا بحاجة إلى تعداد مختلف التفسيرات والتوضيحات التي أثبت بها جيويت ولورنس حجتهما. لكنهما يظهران أن الأوهام الخيالية (الفانتازية) تشمل كل شيء: بدءا براعي البقر الوحيد أو العمدة (الشريف) في أفلام رعاة البقر الكلاسيكية (مثل «الظهيرة»)، وانتهاء بالرؤساء الذين أنقذت قواهم البطولية العالم برمته (مثل فيلمي «عيد الاستقلال» و«ايرفورس وان»). لكن البطل الخارق لا يوجد في أفلام السينما فقط؛ بل يهيمن أيضا على مسلسلات التلفزيون وألعاب الفيديو. يركز المؤلفان انتباها خاصا على المسلسل التلفزيوني «ستار تريك» و سلسلة الأفلام السينمائية «حرب النجوم»، لأنهما يكتشفان فيهما انسحارا بالعنف يصل حد الفاشية الشعبية:

نحن لا نتهم جورج لوكاس بأنه فاشي أوروبي أو نقول إن ملايين الأمريكيين الذين شاهدوا سلسلة «حرب النجوم»

obeikandl.com

يشكلون موجة جديدة من أصحاب القمصان البنية أو قوات العاصفة النازية. بل نؤكد وجود تراث أمريكي محلي/ أهلي من العنف الإنقاذي يظهر على السطح في هذه الأفلام، تيار عميق الغور يجري بالتوازي مع ينابيع الحملات المثالية الأوروبية.. فضلا على أن فكرة حل جميع مشكلات الحياة في معارك حاسمة واضحة بين الخير والشر هي في حد ذاتها مناقضة للفهم الديمقراطي للحكم.. إن إظهار الصلات الروحية بين «حرب النجوم» والفاشية يشير بدلالته إلى الروح العنيدة المعارضة للديمقراطية في هذا النبع الذي ما يزال يتدفق عبر المخيال الأمريكي[23].

أود تقديم ملاحظتين اثنتين هنا. أولا، من المفهوم أن يهتم جيويت ولورنس بتأثير خيالات البطل الخارق الوهمية في المؤسسات الديمقراطية في وطنهما، وأن يقلقهما احتمال أن تشكل هذه الخيالات الفانتازية الثقافة الشعبية للولايات المتحدة إلى درجة يمكن أن تهدد حيوية ومرونة مؤسساتها الديمقراطية. وبطريقة ما، زاد تحليلهما حدة الانقسام الذي وصفته في متلازمة الرابح ـ الخاسر. وفي حين يعد البطل رابحا بامتياز، فإن المجتمعات المحلية المعرضة للخطر التي يأتي لإنقاذها، وأولئك الذين ينتظرون المنقذ المخلص لأنهم لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم، هم الخاسرون. بكلمات أخرى، المؤسسات الديمقراطية هي الخاسرة وبحاجة دوما إلى بطل خارق يكسب معاركها نيابة عنها. لست في موقع الحكم على تحليل المؤلفين وهل يصف بصورة صحيحة الوضع السياسي في الولايات المتحدة أم لا.

obeikandl.com

ملاحظتي الثانية، التي تقلقني كثيرا، تشير إلى أن الفاشية الشعبية التي نتعامل معها ليست شأنا أمريكيا صرفا. فأوهام وخيالات البطل الخارق انتشرت في شتى أصقاع العالم ووجدت مكانا في مخيلة ملايين البشر في أقاصي الأرض. إذ لم تجتاح كوكاكولا ومكدونالد وميكروسوفت وحدها العالم؛ فبسبب الانتشار العالمي للأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية الأمريكية، اجتاح العالم الافتتان المدمر بالبطل الخارق الذي يعد الضعفاء الذين لا يستطيعون مساعدة أنفسهم بأداء المهمات الثقيلة نيابة عنهم. وربما تعمل طريقة الارتقاء بتقسيم الرابح ـ الخاسر إلى مستوى الذرى شبه الأسطورية على تلويث وإضعاف إيمان الناس بنجاعة مؤسساتهم الديمقراطية، لا في الولايات المتحدة فقط بل في غيرها من بلدان العالم أيضا. وهذه نزعة تتعارض مع الهدف السياسي الرسمي المتمثل في ترسيخ ديمقراطيات قادرة على البقاء في شتى أنحاء العالم.

يتحدث لورنس وجيويت عن «مفارقات» هنا(14). لكن فيما يتعلق بالعديد من المراقبين خارج الولايات المتحدة ـ خصوصا أولئك المتشككين أصلا بالديمقراطيات على الطراز الغربي ـ فإن الصورة التخييلية للبطل الخارق/ الرابح تضاعف شكوكهم. وفي الحالات التي يضع فيها الزعماء السياسيون أنفسهم كأبطال خارقين، تصبح الرسالة ازدواجية، على أقل تقدير. ما أفكر فيه توضحه الحادثة الآتية.

ذهلت حين شاهدت غلاف عدد 2002/2/12 من المجلة الألمانية الأسبوعية دير شبيغل، التي تأتيني عادة بالبريد. فمن أجل توضيح حرب بوش «الصليبية» تقريبا على الإرهاب الدولي ـ وصدام حسين على وجه الخصوص ـ رسمت المجلة على الغلاف صورة كاريكاتورية جماعية تظهر

الرئيس بوش بهيئة «رامبو» يحمل مدفعا رشاشا بذراعيه ويلف حزام الطلقات حول جسمه المفتول العضلات؛ أما نائب الرئيس ديك تشيني فأخذ هيئة «المبيد»؛ في حين اتخذت مستشارة الأمن القومي (السابقة) كوندوليزا رايس هيئة زينا «الأميرة المحاربة»؛ وقدم وزير الخارجية كولن باول على شكل «الرجل الوطواط»؛ واتخذ وزير الدفاع دونالد رمسفيلد شخصية «كونان البربري». قصد من الغلاف الذي صنع بطريقة لصق عدد من الصور معا أن يشكل مقدمة تمهيدية (وهجائية) للمقالة الرئيسة، وشعرت أنها ستكون تطاولا إذا جاز التعبير ـ إهانة لمنصب رئيس الولايات المتحدة. لكنني فوجئت حين علمت أن الشخصيات المستهدفة بالانتقاد لم تعد الأمر على هذا النحو قط! فقد قام السفير الأمريكي في ألمانيا، دانييل كوتس، بزيارة إلى مكاتب المجلة، لا للاعتراض، بل ليقول إن الرئيس «شعر بالإطراء»، ثم طلب تكبير ثلاث وثلاثين نسخة من الغلاف إلى حجم الملصقات الدعائية وأرسلها إلى البيت الأبيض لأن كل واحد من موظفي بوش أراد واحدة[15].

يصعب القول إن المثال يجسد أكثر من مجرد حادثة طريفة. لكنه يوضح خيالات وأوهام البطل الخارق التي تلقى القبول بكل مرح وحبور من أعلى مناصب السلطة. لكن الأمر لا يقتصر على «الفاشية الشعبية» التي تهم وتقلق جيويت ولورنس. بل إن قلقهما ينبع أيضا من زراية الأنظمة والقوانين الدستورية المميزة لمآثر البطل الخارق النمطية. ففي سبيل إنقاذ الديمقراطية، تكرر هذه الشخصيات بكل عناد خرق قوانينها وقواعدها؛ وفي الحقيقة، فإن جزءا من سمات البطولة الخارقة

عدم إطاعة هذه القواعد والقوانين، التي ينحصر غرضها كما يمكن أن نستنتج في إبقاء الضعفاء والجبناء تحت السيطرة. فالأبطال الخارقون يحملون قانونهم الخاص معهم. وهذا يعني ضمنا أنهم أبرياء ومطهرون من الذنوب على الدوام، مهما سفكوا من دماء في أعمالهم العنيفة.

مرة أخرى نقول إن هذه البنية الأسطورية تتصل اتصالا وثيقا بتقسيم الرابح ـ الخاسر الذي ناقشناه آنفا. فالرابحون خارج وفوق القوانين والقواعد الناظمة للمجتمع. ومن عوامل مكانتهم الممجدة أنهم يطبقون القانون بأيديهم. أدعو ذلك «الوهم البطولي الخداع»: فهو يشير إلى نوع من البراءة التي تمنع أي جدل أخلاقي يعترض حتى على أشد الأعمال التي يرتكبها «أصحاب المراكز الأولى»، ومن يحاول محاكاتهم، دموية وعنفا. نؤكد من جديد أن تلك ليست لعبة أمريكية حصرا؛ فهي تهيمن على معارك الشوارع بين عصابات الشباب في بلدان أمريكا الوسطى والجنوبية و«الحرب المحدودة» التي يخوضها أمراء الحرب وكارتيلات المافيا في شتى أنحاء العالم.

متلازمة الرابح. الخاسر واليمين الديني:

توفيقية جديدة

يشير جويت ولورنس إلى أن النسخة الأمريكية من أسطورة البطل الخارق مؤسسة على السرديات اليهودية ـ المسيحية عن خلاص المجتمع. فالأبطال الخارقون من أمثال نيو في فيلم «المصفوفة»، ليسوا سوى تنويعات على شخصية المسيح، لكن مع «رسالة إنجيلية» مختلفة اختلافا بينا عن رسالة الكتاب المقدس. أما النقطة التي تقلقني أكثر من سواها فهي أننا

نواجه هنا مثالا لافتا ـ ومزعجا ـ عن التوفيقية التلفيقية: أي خلطة من الصور والأفكار المسيحية وغير المسيحية. وأرغب في توكيد حقيقة أنني لست مهتما صراحة بالتوفيقية الدينية، طالما تفهم بوصفها ظاهرة يتعذر تجنبها وفي حاجة مستمرة إلى تقويم مرتكز على النقد الذاتي. فحيثما تجذر الدين المسيحي ـ أو أي دين آخر ـ امتص إلى حد ما العادات الثقافية والتقاليد الدينية السائدة في سياقه الثقافي. لكن العملية التوفيقية تنذر بالخطر حين تنكر حقيقتها الواقعية: بكلمات أخرى، حينما وحيثما تزعم الطوائف الدينية أن رسالتها هي رسالة دين السلف الصالح «النقية»، والتمثيل الأساسي «لصوابيتها القويمة»، عندئذ تقترب التوافقية من حدود الهرطقة.

لاحظت أن الحركات الإنجيلية اليمينية، ومنها تلك التي تحمل رسالة رؤيوية صارمة، متأثرة تأثرا عميقا بأيديولوجيات «الرابحين» الحديثة شبه الدينية، مع أن أعضاء الحركات يصرون بإلحاح على أنها إنجيلية نقية في توجهها. وفي الحقيقة، فإن هذا الزعم بالصوابية القويمة هو الذي يمنعها من رؤية عمق تأثر إيمانها بالتقسيمات الدينية الجديدة للناس إلى رابحين وخاسرين التي اجتاحت العصر الحالي. وأشير هنا إلى ثلاثة مجالات يمكن فيها اكتشاف الخلطة التوفيقية/ التلفيقية بسهولة أكبر.

«انضم إلى الفريق الرابح مع المسيح»(16)

هذا النوع من الشعارات شائع ومنتشر بين الإنجيليين في الولايات المتحدة. فأي مسيح يفكر فيه أمثال هؤلاء الوعاظ والمبشرين؟ يتحدث الإنجيل عن حاخام متجول قال عن نفسه: «للثعالب أوجار، ولطيور السماء أوكار، لكن ابن الإنسان ليس له مكان يسند رأسه» (متى 8 : 20). كان

هذا المسيح غريبا، وصديقا للغرباء. وقاده عطفه وتراحمه وإحسانه إلى البحث عن الذين يعيشون في بؤس، بحيث أصبح أملا للفقراء والمنبوذين. وحبه الراديكالي القائم على الرقة واللطف واللاعنف حوله إلى تهديد للزعماء الدينيين في زمنه وثائر محتمل (أو حتى إرهابي!) على قوات الاحتلال الروماني. ولذلك صلبوه. وتنفيذ حكم الإعدام بشخص على الصليب*، وتعريته والهزء به، في وضح النهار في مدينة القدس، يعد أفظع طريقة لسحقه وتدمير أفكاره. وعدّ هذا الإعدام أمارة تثبت أن المسيح فشل فشلا ذريعا. حتى الحواريين اعتقدوا ذلك.

بعد بضعة أيام، كشف المصلوب* عن نفسه أمامهم بوصفه قادرا بتراحمه وإحسانه على مغالبة حتى حدود الموت. فالحب الذي عبر عن خصلته المسيحية لا يمكن سحقه بقوى الموت. وهكذا، كشف «الخاسر» عن نفسه بأنه المسيح. لكنه أكد أن «الانضمام إلى فريقه» يعني السير على خطاه وعدم انتظار شيء آخر، أو شيء أفضل، من مصيره الدنيوي. ما تعنيه الرسالة المسيحانية أوجزتها بأفضل أسلوب العظة على الجبل (متى: 5 ـ 7). أما التزام الحواريين الرسالة المسيحية فموصوف بوضوح في إنجيل بولس، حين كتب عن المسيحيين في كورينث:

> إلى هذه الساعة نجوع ونعطش، ونعرى ونُلكم وليس لنا إقامة، ونتعب عاملين بأيدينا. نُشتم فنبارك؛ نضطهد فنحتمل؛ يفترى علينا فنعظ. صرنا وأصبحنا الآن كأقذار العالم، ووسخ كل شيء.
>
> (كورنثوس، 4: 11 ـ 12)

---

* ادعاء الصلب للمسيح عليه السلام، يخالف ما ورد في القرآن، إذْ أوضح الحقيقة وأنَّه لم يصلب ولكن شبه لهم.

هل هذا ما يقصده الإنجيليون الأمريكيون حين يشيرون إلى أننا مع المسيح سنكون دوما في الفريق الرابح؟ أستبعد ذلك. لكنهم على الأرجح يشيرون إلى قيامة المسيح، الذي يجلس «على يمين الرب، وسيحكم من هناك على الأحياء والأموات»، وفقا لعقيدة الحواريين. فضلا على ذلك، حين نتذكر سيناريوهات «المتروكون» الرؤيوية، نجد أن المسيح قد فقد جميع صفاته الدنيوية. إذ لم تعد رحمته التي لا حد لها تلهم البشر لاتباعه، بل غضب «البطل الخارق» الذي يبيد أعداءه ويهلكهم في معركة ارماجيدون النهائية. يقدم فيلم ميل غيبسون «آلام المسيح» (2004) مسيحا يعطيه صبره البطولي على التعذيب الذي تعجز عن وصفه الكلمات في «الجلجلة»*، «حقا» إلهيا في أن يصبح المنتقم الجبار ـ لجميع أولئك الذين بلغ بهم الحمق حد رفض معاناته وتبريحه وتضحيته للتكفير عن خطاياهم. جميع الحشود التي رفضته مقدر عليها أن تكون الخاسرة.

لا نحتاج إلى تصديق السيناريوهات الرؤيوية للخلط بين الوعود المغرية للتفكير المرتكز على «الفريق الرابح» والرواية التوراتية. تيد هاغارد، راعي كنيسة نيو لايف في كولورادو سبرينغز (بولاية كولورادو) ورئيس الجمعية الوطنية للإنجيليين، قدم مثالا معبرا حين قال لصحفي ألماني: «الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم. فلم نسرق [المال] من الأغنياء ونعطيه إلى الفقراء؟ عندئذ ستسود عندنا الظروف السائدة عندكم في ألمانيا!»(17). أشك ـ على أقل تقدير ـ في أن تكون تلك رسالة الإنجيل. وأتعاطف مع التنهيدة المعبرة عن السخط في بداية كتاب جيم واليس «سياسة الله» (2005):

> يشعر الكثيرون منا أن ديننا قد سرق، وحان الوقت لاستعادته. خصوصا أن سوء تمثيل هائلا حدث للمسيحية. وبسبب سوء

* تلة قرب القدس صلب عليها المسيح حسب ادعاء الإنجيل. (م)

> الفهم الموحد تقريبا في وسائل الإعلام، يظن كثير من الناس في شتى أنحاء العالم اليوم أن الدين المسيحي يمثل الالتزامات السياسية التي تناقض تقريبا معناه الحقيقي. كيف أصبح دين المسيح معروفا بممالأة الأغنياء وتأييد الحروب ونصرة أمريكا وحدها؟ ما الذي حدث هنا؟ وكيف نعود إلى الإنجيل التاريخي وننقذ الدين الإنجيلي الحقيقي من تشويهاته وتحريفاته المعاصرة؟[18]

ما الذي حدث هنا؟ أعتقد أن إحدى الإجابات عن سؤال واليس تكمن في الخلطة التوفيقية / التلفيقية غير المعترف بها بين الأصولية الإنجيلية ـ الرؤيوية بالأخص ـ وثقافة البطل الخارق الشعبية. ومع أن الإنجيليين ورعاة الكنائس، من أمثال تيد هاغارد، يزعمون أنهم ليسوا سوى مفسرين صادقين ومخلصين للكتاب المقدس، إلا أنهم متأثرون تأثرا عميقا في الحقيقة بخيالات وأوهام البطل الخارق المحيطة بهم. ومسيحهم لا علاقة له بمسيح الإنجيل لا من قريب ولا من بعيد؛ بل يشبه البطل الخارق الذي يجب أن يعود ليدمر أولئك الذين أحدثوا الفوضى في العالم. مسيح يحابي الأثرياء ويؤيد الحروب وينصر الأمريكان بالتأكيد، ويمثل باختصار «خبرا سعيدا» يفرح الأغنياء والأقوياء.

الكنائس الوطنية الكبرى المنتشرة اليوم تجمعها علاقة أوثق مع مراكز التسوق منها بالكنائس الصغيرة التي تجمع فيها أوائل المسيحيين (وبالطبع، لا علاقة للكاتدرائيات القوطية الرائعة التصميم في فرنسا بتلك الكنائس/ المنازل المبكرة أيضا). العبادة والتسوق في أمريكا منتجان من منتجات الذهنية الاستهلاكية ذاتها، ورعاة الكنائس الوطنية الكبرى

رجال عصاميون يعملون في صناعة (و«بيزنس») العبادة/ التسلية. هل تعد هذه العبارة جارحة وصارخة؟ هل أعبر عن حسدي كقس متقاعد من الكنيسة اللوثرية، التي يتقلص عدد أعضائها، كحال العديد من الكنائس الرئيسة الأخرى في أمريكا؟ هل أنا خاسر مكروب لا يتحمل حقيقة وجود ناجحين آخرين؟

أعتقد أن الأمر يتجاوز هذا الإطار. فمع أنني مقتنع بأن الكنائس التقليدية يمكن أن تتعلم الكثير من بعض المقاربات الجديدة للكنائس الوطنية الكبرى في أمريكا، إلا أنني مقتنع أيضا بأن مبدأ «الأكبر هو الأفضل» لا يعبر عن جوهر تعاليم وإنجيل يسوع المسيح. إذ يدعي رعاة الكنائس الوطنية في أمريكا أنهم يمتلكون مدخلا مباشرا إلى أسرار الخالق، في حين تتمسك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية وكنائس الإصلاح بقناعة مفادها أن «مذاهب القديسين» تتطلب تشبثا مستمرا بكلمة الله (على الرغم من تفاوت مناهجهم تفاوتا كبيرا لتحقيق ذلك بالطبع). وهي تشترك في الرأي القائل إن المطلوب بنية تشبه المجمع أو المجلس الكنسي للحفاظ على هذا الخطاب والجدل القائمين على نقد الذات. وهي تتفق أيضا، مع الكثير من التحفظ في بعض الأحيان، على أن الاستقصاء الأكاديمي اللاهوتي المستقل أمر لا غنى عنه للحفاظ على استمرارية هذا الجدل. يعتمد ذلك كله على أساس رؤية أن أولئك الذين يزعمون امتلاك الحقيقة يرجح أن يسقطوا في فخ الخداع الانتصاري.

تهديد احتجاب النعمة وفقدان الحظوة

حين انضم المسيحيون الذين ولدوا من جديد إلى «الفريق الرابح»، تجسد اهتمامهم النهائي في البقاء فيه. فهم لا يتحملون احتجاب النعمة ولا

ذهاب الحظوة أبدا. ولذلك يجب أن يكونوا مستعدين لتقديم التضحيات: سوف يخضعون جميع جوانب حياتهم وعملهم للنداء أو«صوت» الله. وتغدو الأمانة أمرا بالغ الأهمية، فإذا فشلوا في فعل ما يريده الله فسوف يخسرون حظوتهم لديه. وإن أصيبوا بالهزيمة فهذا يعني أنهم طردوا من الفريق الرابح. والخاسر في نظر الرب يعني أنه مدان وسيلقى سوء المصير.

لا يخلو هذا الترتيب من المخاطر. إذ يتعرض المسؤولون في المناصب القيادية لإغراء تفسير كل مشكلة صعبة بوصفها امتحانا للأمانة بحيث تنعدم البدائل المتنوعة. لذلك، يصبح تقسيم إما/ أو النموذج المهيمن للحكم على القضايا والأشخاص؛ ويوجد مناخا من عدم الأمان المستمر الذي يحتاج إلى السيطرة المتواصلة لتهدئة حدته. مثل هؤلاء بحاجة إلى استعراض القوة وإظهار العزيمة، حتى في الحالات التي يكون فيها من الحكمة إظهار قدر من ضبط النفس. والأهم أنهم بحاجة إلى التشبث بالقرار والمسار، لأن تغييرهما يستحضر شبح التحول إلى خاسرين في نظر الناس، والأخطر، في نظر الله.

أعترف أن هذا المنظور ساعدني في فهم كيف يمارس الرئيس جورج بوش سلطته، وحرب العراق مثال معبر في هذا السياق. فعلى الرغم من أن الكثيرين من الخبراء داخل وخارج الولايات المتحدة نصحوه بعدم التورط في هذه المغامرة المحفوفة بالخطر، إلا أنه تشبث برأيه ومضى في مغامرته. في المقابلات المطولة التي أجراها بوب ودوارد (من أجل كتابه«خطة الهجوم»)، يصف رفض بوش نصيحة المستشارين، ومنهم أبوه نفسه: «إنه الأب الخطأ الذي ألجأ إليه فيما يتعلق باستمداد القوة. هناك الأب الأعلى الذي ألتمس عونه»، حسبما قال وسجل عبارته بوب

ودوارد[19]. ويبدو من هذه العبارة أن بوش الابن شعر بأن الله يدعوه لشن هذه الحرب؛ ومن ثم سيكون من الخيانة للأمر الرباني لو قرر عدم مهاجمة العراق. وحين قرر الحرب، ذكر أنه لم يشعر بأي تردد: «لم أعان من الشك.. على الإطلاق»[20]. في الوقت ذاته، ربما شعر بأن عليه أن يؤكد ذاته كرجل قوي لا يعرف التردد والتذبذب: بالتزامن مع كونه العبد المطيع والرابح الذي لم يعهد الخسارة. كان متشوقا مثلا إلى إعلان انتصاري من على ظهر حاملة الطائرات «ابراهام لينكولن» يؤكد أن نصرا تاريخيا وعالميا قد تحقق: «في صورة التماثيل التي تسقط [في بغداد] شهدنا وصول حقبة جديدة.. رأينا تحول المد»[21]. النمط ذاته، وإن كان على مستوى أقل أهمية، يمكن ملاحظته في الأسلوب الذي اتبعه هذا الرئيس نفسه لتجاوز مجلس الشيوخ والمضي قدما في تعيين جون بولتون سفيرا في الأمم المتحدة. إذ لم يكتف بإظهار عدم احترامه للشكوك الخطيرة التي عبرت عنها جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ؛ بل خاطر بإضعاف فاعلية مرشحه بين زملائه وتعريض موقع الولايات المتحدة للخطر في الأمم المتحدة. ومن المؤكد أنه عد تعيينه المراوغ والملتوي لبولتون نصرا مؤزرا لمبادئه البطولية السامية.

مرة أخرى نقول إننا نواجه هنا خلطة توفيقية/تلفيقية مراوغة تجمع المسيحية المحافظة مع عقدة الرابح في الثقافة الشعبية. أي الشخصية الأسطورية للبطل الخارق مع الواقعية المسيحية ـ المشوهة والمحرفة ـ برأيي. الوهم البطولي للرابح يخرب الواقعية المسيحية التي تعترف بأن أشد المؤمنين تحمسا وتقوى خطاؤون ومعرضون للضعف والاستسلام أمام المغريات. لذلك، يصر القديس بولس (أحد الحواريين)، الذي كان لديه

سبب وجيه ليعد نفسه مبشرا ناجحا، على رسالة الله: «نعمتي تكفيكم، وقوتي كاملة في الضعف» (كورنثوس 12 : 9). هذه هي واقعية الرحمة التي تقبل تناقضات البشر، في حين تزودهم بوعد التوبة والبداية الجديدة، مع مساحة واسعة لتصحيح الأخطاء، وابتكار مقاربات جديدة، والسعي وراء طرق مستدامة للتعايش مع الآخر، بل حتى مع العدو.

وبالمقابل، يحتاج المسيحيون المؤمنون بالبطل الخارق إلى اليقظة والانتباه باستمرار. إذ لا يمكنهم التصالح مع هشاشة وضعف النفس البشرية واستسلامها للإغراءات؛ فهم يعدونها من غوايات الشر. وهم بحاجة إلى تيقن أنهم على جادة الصواب. ونظرا لأنهم لا يجرؤون على الاعتراف بما في نفوسهم من شكوك وضعف وخطايا وذنوب، سوف يكتشفونها خارج ذواتهم ـ في الآخرين. لذلك، يصبح العالم متخما بالأعداء. لكن الحرب عليهم لا يمكن كسبها من الداخل؛ إذ يجب خوضها على الجبهة الخارجية. أما النتيجة فمزيد من العداء والعداوة، والشك والارتياب، والغضب والحنق: ذهنية تعد بإيجاد الظروف «الآمنة» لكنها تؤبلس العالم الخارجي.

التوجه إلى الحرب

التوليفة التي تجمع متلازمة الرابح ـ الخاسر وسيناريوهات الدين المتطرف القائمة على مبدأ إما/ أو، توجد مناخا حربيا يهدد بتمزيق المجتمع إربا إربا. نرى ذلك في الشرق الأوسط، حيث تفجرت النزاعات في العراق بين السنة والشيعة على شكل هجمات دموية، إلى حد تعرضت فيه وحدة البلد للخطر.

وبطريقة مشابهة، تتفاقم التوترات في المجتمع الأمريكي بين الجماعات المسيحية اليمينية وتلك التي تعدها «ليبرالية» أو «علمانية» ـ وتزداد حدة وعنفا. أما النتيجة فهي ثقافة حربية تهدد بتقسيم العائلات والأحياء السكنية والكنائس والمنظمات والمؤسسات الاجتماعية. يقول جون غراهام مدير مشروع جيراف: «لم أر في حياتي مثل هذه الدرجة من الاستقطاب، والحدة، وفقدان اللباقة واللطف والتهذيب والاستعداد لسماع وجهة نظر الآخرين. ينطبق ذلك على الكل: من الكونغرس إلى المقاطعة الريفية الصغيرة التي أعيش فيها»[22]. ولا يعد ذلك خبرا سارا لأمة تنفق هذه المبالغ الضخمة من المال على «الأمن الوطني».

على المستوى الدولي، تميل متلازمة الرابح ـ الخاسر إلى تضييق المساحة التي يمكن فيها العثور على حلول سياسية. فالحرب على الإرهاب، والحرب الاستباقية «الوقائية» على العراق أوجدتا أوضاعا يائسة ومسدودة الأفق. في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، يتضاءل الأمل بأن يتدبر العراق أمر الحفاظ على وحدته وسلامة أراضيه وتتمكن الولايات المتحدة من الانسحاب بطريقة مشرفة. الرئيس بوش ألح مرارا وتكرارا على أن النتيجة المقبولة الوحيدة في العراق هي «النصر الشامل الكامل»، كأنما القلب المترع بالحزن والعداء يمكن تغييره بالقوة العسكرية الأمريكية الغاشمة[23]. أما الإصرار اليائس على مغادرة ميدان المعركة بعد كسبها والظهور بمظهر الرابح المنتصر فيجعل الحلول السياسية مستحيلة.

كان لهذه الحرب على الإرهاب تأثير درامي على الأمن الذي ادعت الدفاع عنه في شتى أرجاء العالم. فقد أصبح المناخ السياسي مليئا بالشك والارتياب والعداء ـ إلى حد أن الزيارات الرسمية أو مؤتمرات القمة

تتطلب قدرا من الإجراءات الأمنية غير مسبوق في التاريخ. وأسهمت الهجمات الإرهابية في مدريد ولندن واستنبول وعمان في الانشغال بهاجس الإجراءات الأمنية التي قلصت الحريات المدنية وعرضتها لخطر داهم، وهي حريات يحق للمجتمعات الديمقراطية أن تفخر بها وتسعى للدفاع عنها. من ناحية أخرى، تجسد ثورات الشباب في الضواحي المحيطة بباريس وغيرها من المدن الفرنسية في خريف عام 2005، نموذجا للإحباط المتجذر لدى «الخاسرين» في المجتمع الفرنسي. ويبدو أن العنف هو اللغة الوحيدة لإسماع صوتهم ودفع المجتمع إلى فهمهم. وأنا متيقن أننا سنرى مزيدا من مثل هذه الأعمال في بلدان العالم الأخرى.

أصبح تقسيم الناس إلى رابحين وخاسرين القاعدة التي يتبعها «اللاعبون العالميون» في لعبتهم. مرة أخرى أؤكد أنني لا أتحدث عن الولايات المتحدة وحدها، مع أن مكانتها كقوة عظمى وحيدة تجعلها اللاعب المهيمن في «فريق الرابحين» هذا. بلدان النسق الثاني في أوروبا وآسيا تنتمي إليه أيضا. يروي جون غراهام قصة عن نفسه حين كان طالبا في سنة التخرج في أوائل الستينيات، حيث اعتاد التجول في العالم وليس في جيبه سوى بضعة دولارات. فأينما ذهب لقي الترحيب، وكان الناس يدعونه إلى منازلهم ولم يواجه أي مشكلة في العثور على عمل لتمويل رحلته. كان شابا أمريكيا يحب الناس في شتى أرجاء العالم لقاءه والتحدث معه. يقول متسائلا: «ما الذي حدث لنا؟ بعد أربعين سنة، سوف يواجه أي طالب جامعي أمريكي بالشك والريبة والكراهية أينما ذهب. في تلك الخوالي، كنت أشعر بالأمان في الأماكن ذاتها التي يتعرض فيها الأمريكيون اليوم للقتل»[24].

سوف أكرر سؤال جيم واليس مرة أخرى: ما الذي حدث؟ «أسلوب الحياة الأمريكي» الذي جذبني إليه عندما كنت شابا فقد الكثير من جاذبيته. ومن المؤكد أن ظاهرة الأعداد الضخمة من الرجال والنساء الذين يحاولون دخول الولايات المتحدة ما زالت مستمرة إلى يومنا الحالي، في حين يخاطر غيرهم بحياتهم لدخول البلدان الغنية في أوروبا. وبالمقارنة مع البؤس واليأس في أوطانهم، ما زالت البلدان الغنية في أمريكا الشمالية وأوروبا تبدو «أرض الأحرار وموطن الشجعان»، وهذا الوعد الأسطوري ما زال جذابا. لكن في الوقت ذاته، تجد أعداد متزايدة من الناس في أمريكا اللاتينية وإفريقية وآسيا أن هذه الأسطورة تحمل في ركابها وهما خداعا. فهم يتعرضون للرفض والنبذ والإقصاء: فالجدران والحواجز التي تفصلنا، نحن الرابحون، عنهم، جماهير الخاسرين، تزداد ارتفاعا باطراد. وهذا لا يعني سوى أن العالم متجه نحو مزيد من الحروب.

خاتمة مؤقتة

يمكن قول الكثير، ويجب قول الكثير، لنفهم الوضع الذي نحن فيه (وأعني بـ«نحن» أولئك الذين يستفيدون من الثروة والحريات في الولايات المتحدة وأوروبا كلتيهما). لكن ما وصفته قد يكفي لتوضيح التغير الجذري في إدراك ما تمثله «أمريكا». في الفصل الأول، عاينت المسيحانية التقليدية التي انطلقت منها نهضة الولايات المتحدة المذهلة. في الفصل الثاني، حاولت إظهار حجم النجاح الهائل الذي حققته سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية. وأود الإشارة إلى أنها عبارة عن تثوير راديكالي للعناصر الألفية داخل المشروع المسيحاني الأمريكي. أما الشخصية الأسطورية

obeikandi.com

للبطل الخارق وتقسيم الناس إلى رابحين وخاسرين اللذان ناقشتهما في الفصل الثالث فيمكن رؤيتهما كعلمنة وتسطيح للاستثنائية التي هي جزء من المشروع المسيحاني الأمريكي أيضا. فضلا على ذلك كله، حاولت إظهار أن النزعتين كلتيهما، التثوير والتسطيح، تقويان إحداهما الأخرى. أما النتيجة فهي أن الدين المدني الذي عرفه روبرت بيلاه قد أصبح دينا توفيقيا شعبويا يضم الجماعات الرؤيوية ذات التوجه السياسي اليميني وعناصر من الثنوية البطولية العريضة القائمة على تقسيم الناس إلى رابحين وخاسرين. والسمات المشتركة لهذه الذهنية تجسدها خلطة تجمع النظرة المانوية للعالم، والوطنية الشوفينية، وثقافة الحرب العدوانية.

انطباعي هو أننا نواجه تشويهات عميقة وتحريفات خطيرة للتراث المسيحاني في أمريكا، وهذا يؤدي إلى السؤالين التاليين: ما الذي يوجد في المسيحانية التقليدية ويسهل ويناسب هذه الانحرافات الضلالية؟ وما الذي يجب فعله لإصلاح فكرة المسيحانية الأصلية؟

هوامش

1- انظر:

Godehard Weyerer, “C.A.R.E. fur Deutschland,” Die Zeit (July 24, 1996).

2- أغنية«الرابح يأخذ كل شيء» سجلتها فرقة ابا عام 1979. وفيما يتعلق بالانتخابات، وبالتغاير مع حقوق التصويت في بريطانيا والولايات المتحدة، حيث يأخذ المرشح الرابح جميع أصوات الدائرة في حين تضيع أصوات المعارضين، يتبع المواطنون الألمان نوعين من عمليات التصويت. في الأول تذهب الأصوات مباشرة إلى المرشح، وتذهب في الثاني إلى حزب المرشح. هذا النظام يمكن الأحزاب التي هي أصغر حجما، مثل الخضر أو الليبراليين، من إرسال أعضائها إلى البرلمان الذي ينتخب أعضاؤه بواسطة التصويت للحزب. أفضل هذا النظام على ذلك المستخدم في بريطانيا والولايات المتحدة، الذي يضع عبئا ثقيلا لا يحتمل على عاتق الأحزاب الجديدة ويمنعها من الاشتراك في العملية البرلمانية.

3- ناقشت الطبيعة العنفية لمتلازمة الرابح ـ الخاسر بتفصيل مسهب في مقالتي:

Faszination Gewalt. Aufklarungsversuche (Frankfurt/Main: Lembech Verlag, 2006), pp. 66- 98.

4- انظر:

Bob Herbert, “Bush’s Colossal Failure,” New York Times, Sept. 5, 2005.

5- Thomas L. Friedman, «Osama and Katrina,» New York Times, Sept. 7, 2005.

6- Jedediah Purdy, «Eine Lehrstund fur Wolfe,«Suddeutsche Zeitung 37 (Sept. 8, 2005), p. 3.

(الشـاهد مقتبس عن أصل إنكليزي غير منشور، سمح لي بيردي مشكورا باستخدامه).

7- يمكن الاطلاع على مثال واضح على مقاربة إما/أو هذه في كتاب فروم وبيرل: «نهاية للشر: كيف نكسب الحرب على الإرهاب» (New York: Random House, 2003)، حيث يذكر المؤلفان: «نحن لا نعتقد أن الأمريكيين يحاربون هذا الشر [الإرهاب] لتقليص خطره أو التعامل معه. بل نعتقد أنهم يحاربون لينتصروا ـ لينهوا هذا الشر قبل أن يقتل مرة أخرى بحجم الإبادة الجماعية. لا يوجد حل وسط أمام الأمريكيين: إما النصر أو المحرقة» (ص9)، وهذان خياران أجدهما كلاهما مروعين.

8- انظر:

John Shelton Lawrence and Robert Jewett, The Myth of the American Superhero (Grand Rapids: Eerdmans, 2002); John Shelton Lawrence and Robert Jewett, Captain America and the Crusade Against Evil: The Dilemma of Zealous Nationalism (Grand Rapids: Eerdmans, 2003).

9- Lawrence and Jewett, Myth, p. 6.

10- Joseph Campbell, The Hero with a Thousand Faces (New York: Meridian, 1956).

11- Lawrence and Jewett, Myth, p. 6.

12- Lawrence and Jewett, Myth, pp. 6f.

13- Lawrence and Jewett, Myth, p. 278.

14- انظر:

Lawrence and Jewett, Myth, p. 7.

15- للاطلاع على مزيد التفاصيل، انظر:

Lawrence and Jewett, Captain America, pp. 40, 43.

obeikandl.com

16- انظر:

«Faith Takes Center Stage at Superbowl,» Associated Press, February 5, 2005.

http://www.foxnews.com/story/0,2933,146507,00.html

17- Lars Jensen, «Beten bis zum Umfallen», Suddeutsche Zeitung 38 (Sept. 23, 2005): 34 (translated by the author).

18- Wallis, God's Politics (San Francisco: HarperSanFrancisco, 2005), p. 3.

19- Woodward, Plan of Attack (New York: Simon & Schuster, 2004), p. 421.

20- Woodward, Plan, p. 420.

21- Woodward, Plan, p. 412.

22- John Graham,«America Today,» remarks at a meeting of the International council of Initiatives for Change, Vancouver, B.C., Canada (March 12, 2005, unpublished manuscript), p. 4.

23- انظر على سبيل المثال:

«Bush: U.S. Seeks Total Victory Over Terrorism,»Armed Forces Information Service of U.S Department of Defense (online):

http://www.defenselink.mil/news/Aug20052504_20050822/.html (accessed Nov. 20, 2005).

24- محادثة شخصية مع المؤلف.

obeikandi.com